تأثير الهجرة والهجرة المضادة في ديمغرافية فلسطين المحتلة

عماد جاد

عندما نشأت الحركة الصهيونية في أواخر القرن الماضي، عملت على تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين، بحجة ان اليهود سيضعون حداً ـ في حالة هجرتهم اليها ـ للمعاناة التي يتعرضون لها في الشتات. وعليه، بدأت تيارات الهجرة اليهودية تتدفق على فلسطين، حتى انه بقدوم العام ١٩١٨ بلغت نسبة اليهود في فلسطين ثمانية بالمئة من اجمالي السكان، حيث وصل عددهم الى ٥٦ الف نسمة من بين ٧٠٠ الف نسمة هم تعداد سكان فلسطين في العام المذكور. واستمرت الموجات البشرية اليهودية في التدفق على فلسطين، حتى كان العام ١٩٤٨ الذي شهد قيام الكيان الصهيوني، وشهد، أيضاً، انقلاباً جذرياً في تركيبة المجتمع السكانية، حيث قفز عدد اليهود، في هذا العام، الى ٧٠٠ الف نسمة من مجموع ١,٨٧٠,٠٠٠ مليون نسمة، هم تعداد سكان فلسطين لحظة قيام الكيان الصهيوني؛ أي ان نسبة اليهود قفزت الى ٣٧,٤ بالمئة من سكان البلاد.

واستمر ذلك الانقلاب الديمغرافي، فلم يأت العام ١٩٥٠ الا بلغت نسبة اليهود في الكيان الصهيوني ٨٥,١ بالمئة من السكان، واصبح العرب يشكلون ١٤,٩ بالمئة فقط، نتيجة اجبار السلطات الاسرائيلية مئات الالاف من الفلسطينيين على الهجرة الى الضفة الغربية وقطاع غزة والدول العربية المجاورة، وفي الوقت الذي جاءت موجة الهجرة الكبرى خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٥١؛ اذ بلغ المتوسط السنوي لصافي الهجرة اليهودية، في هذه الفترة، ٢٢٢ الفاً.

ولكن مع نهاية عقد السبعينات واوائل الثمانينات برزت مع الافق ظاهرتان مترابطتان، هما ضمور ينابيع الهجرة اليهودية من الخارج ووصولها الى ادنى مستوى لها في العام ١٩٨١، واتجاه قطاعات واسعة من يهود اسرائيل الى النزوح خارجها، هرباً من جحيم «أرض الميعاد»، الامر الذي لم تجد معه محاولات قادة اسرائيل اضفاء المسحة الدينية على عملية الهجرة الى اسرائيل، تلك المحاولات التي حاولت صبغ الهجرة بهالة من القداسة وكأنها فعل اخلاقي فاضل. وظهرت هذه المحاولات في المصطلحات العبرية المستخدمة في الاشارة الى الاشكال المختلفة للهجرة اليهودية؛ فاطلقت اصطلاح عالياه (*aliyah*) الذي يحمل معاني الصعود والعلو على هجرة يهود الشتات، وهو ما يعني تسامي اليهودي بهجرته الى اسرائيل. أما اذا هاجر اليهودي من فلسطين المحتلة الى الخارج، فيطلق عليه يريداه (*yeridah*)، وهو اصطلاح يحمل معاني الردة والهبوط والنكوص والانحلال والخطيئة.

ولكن تجربة السنوات الماضية، منذ مطلع الثمانيات، اشارت الى عدم جدوى المحاولات الصهيونية في هذا الصدد، حيث لم تشفع محاولات اضفاء الطابع الديني على عملية الهجرة في